أنسنةُ مفرداتِ الطبيعةِ الحيّة في شعر حُميْد بن ثور الهلالي.
الحمام أنموذجاً
قراءةٌ في الأبعاد والملامح الجمالية

د/سحر حسن أشقر

الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية

قسم الأدب والنقد والبلاغة

جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أنسنةُ مفرداتِ الطبيعةِ الحيّة في شعر حُميْد بن ثور الهلالي. الحمام أنموذجاً قراءةٌ في الأبعاد والملامح الجمالية

سحر حسن أشقر
قسم الأدب والنقد والبلاغة – كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى

الملخص :

شغلت الطبيعة بكافة عناصرها الشاعر الجاهلي، فآخذ يصفها وصفا أخاذا، ويمتزج معها في هذا الوصف حد التماهي، مما يبرز حجم العلاقة التي تربطه بها، وكان الحمام أحد مظاهر الطبيعة التي استوقفت شعراء الجاهلية، ومنهم حميد بن ثور الهلالي الشاعر المخضرم الذي افتن بالحمام كمفردة من مفردات الطبيعة التي لها حضورها الخاص في وجدان الإنسان، ومن ثم حاورها واستنطقها المشاعر واللحظات والخلجات، مضفيًا عليها صفات الإنسان فيما عرف – في المجال الأدبي – بالأنسنة. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يهدف إلى دراسة أنسنة الحمام في شعر حميد بن ثور ماهيته وأبعاده، وملامحه. وقد قام البحث على مقدمة يتلوها تمهيد، يتفرع لثلاث مطالب؛ فمبحثان تناول الأول منهما: أنسنة الحمام في شعر حميد. وتناول الثاني: وسائل تشكيل أنسنة الحمام الفنية عنده. تلحق بهما خاتمة تنحني على عدة نتائج. وقد استعان البحث بالمنهج الوصفي التحليلي لمناسبته لطبيعة البحث، وتوصل خلالها إلى أن أنسنة حميد للحمام تشكلت في النص الشعري بأدوات مختلفة، وكانت تقف خلفها بواعث تكشف عن أبعاد متباينة ومشاعر سلبية غائرة في الأعماق .

الكلمات المفتاحية: الأنسنة –الحمام –النص الشعري –حميد بن ثور

Humanizing the Vocabulary of Living Nature in the Poetry of Hamid bin Thawr Alhilali
-The Pigeon as a Model-
(A Reading of the Dimensions and Aesthetic Features)

SAHAR HASSAN ASHQAR
Associate Professor, College of Arabic Language
Department of Literature, Rhetoric and Criticism
Umm Al-Qura University

Abstract

Nature with all its elements occupied the pre-Islamic poet, so he began to describe it in a captivating description and blended with it in this description to the point of identification, which highlights the extent of the relationship that linked him to it, and the pigeon was one of the aspects of nature that stopped the poets of the pre-Islamic era, including Hamid bin Thawr Alhilali, the veteran poet, so he dialogued with it and spoke to it feelings, moments and emotions, bestowing upon it human qualities in a literary phenomenon known as humanization.

Hence comes the importance of this research, which discusses the humanization of pigeons in the poetry of Hamid bin Thawr, its nature, dimensions and features.

The research was based on an introduction followed by a preface that branches into three requirements and two topics, the first of which dealt with the humanization of pigeons in the poetry of Hamid. The second dealt with: The means of forming the artistic humanization of pigeons in Hamid.

They are followed by a conclusion that bends around several findings. The research has adopted the descriptive analytical approach; because it is appropriate to the nature of the research, and it reached that Hamid's humanization of pigeons was formed in the poetic text with different tools and there were motives behind it and it revealed different dimensions and deep-seated negative feelings.

Keywords: Humanization - Pigeons - Poetic Text - Hamid bin Thawr.

المقدمة :

نظر الشاعر الجاهلي حوله فلم ير إلا الطبيعة، فتعلق بها، وراح يتأملها تأملا ينحني على كثير من احتضانه لها ،والتصاقه بمفرداتها، من صحراء وأطلال، ونوق، وخيول، وبروق وكواكب، ونجوم وما إلى ذلك. هذا التعلق جعله يشاطرها مشاعره أيا كانت ترحا أو فرحا.

وقد تجلت صور التحام الشعراء والتناغم مع الطبيعة في محاور عدة، فبعضهم رفعها إلى درجة التعبد بها ،كما فعلوا مع الكواكب حينا ،وعبدوا ثالوثا مكونا من الشمس أما، والقمر أبا، وابنهما الزهرة –على سبيل المثال–(١) وكذلك فعلوا شيئا من التقديس مع البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي حينا آخر.(٢)

وقد أخذ ذلك بُعدَه الإنساني حتى إن بعض الحضارات السابقة قد أنست الأحجار وتعبدت بها، ومارست طقوسا شعائرية حيالها لاعتقاد أسطوري بوجود أرواح داخلها (٣) وبعضهم كان يكني الحيوانات بكنى إنسية، فالأسد آبا الحارث، والثعلب أبا الحصين، والفرس أبا مضاء وما إلى ذلك (٤) وآخرون كانوا يسقطون على الطبيعة صفات إنسانية، فمرة يراها تبكي، ومرة يراها تضحك، حسب الأجواء النفسية التي تسكنه.

كل تلك الأخبار قرائن ودلائل على نوعية العلاقة التي جمعت بين الإنسان والطبيعة منذ الحضارات السابقة والعصور البائدة.

(١) راجع: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د. علي البطل، ص ١٢٣، دار الأندلس، ط ٢، ١٤٠١ هـ-١٩٨١ م

(٢) راجع: شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، ص ٢٠، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٥ م.

(٣) راجع: التأنيس غير التشخيص، دكتور مصطفى الجوزو، مجلة العربي الكويتية، العدد ٦٣٠، ٥/مايو ٢٠١١م.

(٤) راجع: شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص ٢٠.

والحمام هذا الكائن الشجي، المرح، الذي أحبه الأدباء وكذا الشعراء –كان أحد مفردات هذه الطبيعية التي تعلقوا بها، وخلعوا عليها مشاعر بؤسهم وألمهم أحيانا، وأنسهم وسرورهم أحيانا أخرى وفقا للحالة النفسية التي كانت تعتريهم وقتها، فغالبا ما (يوافق الجو النفسي للصورة التشبيهية انفعالات الشاعر وأحاسيسه، فإذا كان سعيدا تداعت في مخيلته الصور المشرقة والمتفائلة، وإن كان كئيبا تداعت في ذهنه الصور القاتمة الحزينة)[١] وحميد بن ثور الهلالي منهم، شاعر وصّاف، له في بعض وصفه للطبيعة أبعاد أخرجها بها من عالمها إلى عالم الأنسنة، وموضوع الأنسنة عولج في دراسات شتّى بشكل عام معالجة أتت على كافة مظاهر الطبيعة ولم تخصص للحمام دراسة مركزة تروم معالجة أنسنته في شعر حميد بشكل خاص –على حد علم الباحثة – لذا رأت أن يكون موضوع البحث هو أنسنة الحمام في شعر حميد بن ثور، لتقف من خلاله على الإشكاليات التالية:

كيف تجلت مظاهر أنسنة الحمام في شعر حميد؟

ولكي تتم معالجة الإشكالية السابقة سيجيب البحث – إن شاء الله تعالى– عن التساؤلات الآتية:

- ما مفهوم الأنسنة لغة واصطلاحا؟
- ما رمزية الحمام في الشعر العربي؟
- ما البواعث التي وقفت وراء تشكيل الأنسنة عند حميد؟
- ما تمثلات أنسنة الحمام في شعر حميد؟
- ما المرجعيات التي انطلق منها، وما الأبعاد التي حاورها وتأملها؟
- ما الأدوات الفنية التي أسهمت في تشكيل الأنسنة عند حميد؟

(١) صور الشعراء الفنية قبل الإسلام من منظور المنهج النفسي، أوراس نصيف جاسم ص١٤١، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٤ م

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى :

- التعريف بمفهوم الأنسنة؟
- الكشف عن تمثلات الأنسنة في شعر حميد بن ثور؟
- تحليل الأبيات تحليلا يقف بها على الأدوات الفنية لتشكلات الأنسنة؟

أهمية البحث ومنهجه :

يروم هذا البحث تسليط الضوء على مفهوم الأنسنة، ثم الوقوف على أنسنة الحمام في شعر حميد بن ثور الهلالي، موضحا أبعادها وجمالياتها في شعره، مستعينا بالمنهج الوصفي التحليلي لعرض النصوص ومحاورتها .

وستقوم الدراسة على مقدمة يتلوها تمهيد، فمبحثان تلحق بهما خاتمة تنحني على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

يشتمل التمهيد ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حميد بن ثور الهلالي–الحياة والسيرة– (لمحة موجزة)

المطلب الثاني: مفهوم الأنسنة.

المطلب الثالث: رمزية الحمام في الشعر العربي .

ثم تناول المبحث الأول أنسنة الحمام في شعر حميد.

وتناول المبحث الثاني: وسائل تشكيل أنسنة الحمام الفنية عند حميد.

يعقب ذلك خاتمة تضم أبرز النتائج، وبعدها قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد

المطلب الأول: حميد بن ثور الهلالي–الحياة والسيرة–(لمحة موجزة)

حميد بن ثور شاعر مخضرم، قضى شطرا كبيرا من حياته في الإسلام بعد جاهليته، وبعد مشاركته مع المشركين غزوة حنين، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأرجح أنه مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل إنه عاش إلى زمن عبد الملك بن مروان[١] ذكر اسمه ضمن عوران قيس، وهم خمسة شعراء، أحدهم حميد بن ثور[٢]، له ديوان شعر مطبوع، جمعه عبد العزيز الميمني رحمه الله تعالى، وعده الأصمعي من عظماء الشعراء العرب في الإسلام[٣] له شعر يشكو فيه هرمه وضعفه مما يعني أنه عمّر طويلا، يقول فيه:

لَقَد رَكِبتُ العَصا حَتى قَدَ اوْجَعَني

مِما رَكِبتُ العَصا ظَهري وأَظفاري

لا أُبصِرُ الشَّخصَ إلا أَن أُقارِبَه

معشوشياً بَصَري مِن بَعدِ إبصارِ[٤]

وقد سمع حميد قول النبي صلى الله عليه وسلم (لو لم يكن لابن أدم إلا الصحةُ والسلامة لكفاه بهما داء قاتلا) فأخذه وقال :

أرى بصري قد رأبني بعد صحة

وحسبك داء أن تصح وتسلما

ولا يلبث العصران يوم وليلة

إذا طَلبا أَن يُدرِكا ما تَيمَّما [٤]

---

١) راجع: الأعلام، خير الدين الزركلي، م٢، ص ٢٨٣، دار العلم للملايين بيروت لبنان، ط٧، ١٩٨٦ م

٢) راجع: ص٣٣٨ – كتاب المجموع اللفيف – عوران قيس – المكتبة الشاملة(shamela.ws) تمت الزيارة في ١٨ أكتوبر ٢٠٢٤ م

٣) راجع: مقدمة ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمني، ص: ح طبعة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب١٣٧١هـ – ١٩٥١م .

٤) راجع: مقدمة ديوان حميد بن ثور، ص(ط). ولتخريج الحديث، راجع: ص٣ – كتاب الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار – بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين – المكتبة الشاملة (shamela.ws) تمت الزيارة في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٤م .

ويعد أيضا من الشعراء المقلين الذين أنطقتهم بالشعر بعض الأحداث والأزمات النفسية وكأن في ذلك إشارات وإرهاصات لملامح الحركة العذرية في شعرنا العربي التي تطورت فيما بعد[١]

تعددت أغراضه الشعرية، وتباينت بين غزل ومدح وهجاء وتقدم السن خاصة (الشيب)، ووصف أبدع فيه حتى قيل عنه (وفي وصفه ما يدل على أنه شاعر واسع الخيال قوي الملاحظة، دقيق الوصف متسقه كما يتجلى في قصيدته الميمية الكبيرة) [٢]

١) راجع: في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، ص٦١-٦٣، دار النهضة العربية بيروت الفاصلة ١٩٨٧م.

٢) مقدمة ديوان حميد بن ثور، ص(ط).

المطلب الثاني: مفهوم الأنسنة:

للأنسنة وفق الأساس اللغوي معان متعددة، وبالرجوع إلى أصل الكلمة في معاجم اللغة يمكننا أن نضع أيدينا ونلمس بعضا من معانيها، فجذرها–أنس– الإنسان المعروف، والإنس: جماعة الناس، والجمع أناس، والأنس بالتحريك المقيمون، والأنس: خلاف الوحشة: وهو مصدر قولك أنست به بالكسر انسا وآنسه . والأنس والاستئناس هو التأنس. وقد أنست بفلان.

والإنس: البشر، الواحد انسي، وأنسي أيضا بالتحريك. والإيناس: خلاف الإيحاش وكذلك التأنيس والأنس بالفتح والضم والكسر، الطمأنينة.

وآنس الشيء: أحسّه، وآنس الشخص واستأنسه رآه وأبصره ونظر إليه.

وآنست بفلان أي فرحت به، وآنست فزعا، وأنّسته إذا أحسسته ووجدته في نفسك وفي التنزيل العزيز (آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) يعني موسى أبصر نارا، وهو الإيناس، وآنس الشيء :علمه، يقال: آنست منه رشدا أي علمته، وآنست الصوت سمعته. وفي حديث هاجر وإسماعيل: ولما جاء إسماعيل عليه السلام كأنه أنس شيئا أي أبصر ورأى شيئا لم يعهده، ويقال: آنست منه كذا أي علمت [١].

وفي المعجم الوسيط: والإنس: خلاف الجن، الصديق الصفي، يقال: هو ابن أنس فلان: خليله الخاص به، والإنسان: الكائن الحي المفكر، جمعها أناسي، (أصلها أنا سين)، وإنسان العين: ناظرها. وإنسان السيف والسهم: حدهما. و(الإنسي): نسبة إلى الإنس واحد الإنس. ومن الكلاب الأليف وغير العقور. [٢]

(١) راجع: لسان العرب، ابن منظور مادة (أنس)ج (١)، ص٢٣١– ٢٣٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط(١) ١٩٩٥م

(٢) راجع: المعجم الوسيط، لجنة مجمع اللغة العربية ج(١)، ص٢٥ أ، ط(٢) دار الفكر.

الأنسنة في الاصطلاح:

غلب على مفهوم الأنسنة الطابع الفلسفي عند من تناولها تناولا فكريا بحتًا؛ وبناء على ذلك ووفقا للمرجعيات المتعددة فإن دلالة المصطلح تختلف في مفهومها بين كل من الفيلسوف والعالم ورجل الدين، كل حسب منطقه[١]

غير أن ما يعنينا في هذا البحث من هذا المصطلح-بعد تحريره من مفهومه الفلسفي والديني-هو جانبه الأدبي النقدي، الذي اعتمده مجمع اللغة العربية. وهو الأنسب والأليق بموضوع الدراسة ومفاده (إنزال غير العاقل كالحيوان والنبات والجماد والمعاني المجردة منزلة العاقل في التعبير والتصوير والخطاب) [٢]

وقريب من ذلك ووفقا لمنظور الدكتور سؤدد يوسف الحميري الذي يرى أن مفهوم الأنسنة يعني (إضفاء صفة إنسانية أو خطاب إنساني، أو إسناد فعل إنساني، أو إسناد صفة إنسانية على الكائنات الحية غير العاقلة والجماد) [٣] وعلى كثرة من عرفها من الباحثين الذين استوقفهم مفهوم الأنسنة، فإن تعريفا جاء واضحا -وأراه موافقا لأبعاد البحث أيضا - وهو أن يضفي الأديب صفات إنسانية محددة على الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة؛ حيث شكلها تشكيلا إنسانيا، وجعلها كأي إنسان، تتحرك وتحس، وتعبر، وتتعاطف، وتقسو حسب المواقف الذي أنست من أجله[٤]

---

١) لمزيد من التفصيل راجع بحث: مصطلح(الآنسنة) وتجلياته في الفكر المعاصر(دراسة تحليلية نقدية)، ندى حمزة خياط، ص١٠٨، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية م ٢٨ع ٦ ص: ١٠٥-١٣١(٢٠٢٠ م)

٢) اللغة حياة-التأنيس غير التشخيص-مصطفى علي الجوزو، مجلة العربي، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، العدد ٦٣٠، الكويت ٢٠٢١ م.

٣) أنسنة الطبيعة في الشعر الجاهلي، دراسة موضوعية فنية، د. سؤدد يوسف الحميري، ص ٣٠، دار دجلة، عمان-الأردن، ط(١) ٢٠١٩ م

٤) أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن المنيف د.مرشد أحمد، ص٧، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م

وهناك من يقترب بالأنسنة من مفهوم الانزياح، ويعرفونه بأنه (استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصور استعمالا يخرج بها عما هو معتاد ومألوف، بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة جذب وأسر) [١]

ولكونه ركيزة فنية في الشعر الجامع بين المجاز والحقيقة، –والمجاز مظهر من مظاهر الانزياح –تغدو الأنسنة جوهر الانزياح. فهو يزيح ما هو ثابت أو متعارف عليه إلى ضده، وبناء على ذلك أدخل بعض الدارسين أنسنة الطبيعة تحت باب الانزياح. [٢]

وبعد هذا المهاد حول مفهوم الأنسنة والتطواف حول رمزيته يبقى السؤال المهم الذي يفرض نفسه وهو:

لم يقم الشاعر بخلع هذه الصفات الإنسانية على الكائنات أو الظواهر الطبيعية المحيطة به؟ وبصورة أدق أو في مقاربة أعمق لمَ لجأ حميد بن ثور تحديدا إلى الالتفات إلى الحمام وإضفاء مشاعره عليه؟! هل كان هو الكائن الأقرب لنفسه؟ أو أن صوته اثار شجوه وشجونه، فهز أوتار قلبه وتجاوب مع هديله، وباح بما في خاطره؟ أو أن المشهد الذي لاحظه لامس شغاف نفسه وحرك شيئا ما بداخله؟ هل افتقد حميد عزيزا أو قريبا أو وليدا، فكانت فجيعة الحمام معادلا موضوعيا لما بداخل حميد؟ أو أنه انبهر بتفاصيل متابعة الحمام لصغيرها، فتابعها متابعة المتعجب، ورصدها وسجلها تسجيلا حركيا وشعوريا؟ أو أنه لم يتسن له إظهاره شوقه المضمر بداخله للحبيب خشية الرقباء والجلاس فأسقطه على الحمام، ليراه واقعا متحركا في ملاطفة الحمام لوليدها؟ أو أنه كان يخشى محاسبة السلطة والرقابة الشرعية، واتخذ من الحمام رمزا وأسقط عليه مشاعره؟

---

١) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، ص٧، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، ط(١) ٢٠٠٥ م

(٢) لمزيد من التفصيل راجع: أنسنة الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص٣٨٦–٣٨٧

تساؤلات عدة، واستفهامات متتالية تجعل المتلقي يقف مستغربا من هذا الامتزاج بين الشاعر والحمام!

وَما هاجَ هَذا الشَّوقَ إِلا حَمامَةٌ دَعَت ساقَ حرّ تَرحَةً وَتَرَنُّما

إلى أن يقول:

إِذا شِئتُ غَنَّتني بِأَجزاعِ بيشَةٍ أَو النَّخلِ مِن تَثليثَ أَو مِن يَبَنبَما
عَجِبتُ لَها أَنّى يَكونَ غِناؤُها فَصيحاً وَلَم تَفغَر بِمَنطِقِها فَما
فَلَم أَر مَحزوناً لَهُ مِثلُ صَوتِها وَلا عَربيّا شاقَهُ صَوتُ أَعجَما
كَمِثلي إِذا غَنَّت وَلَكِنَّ صَوتَها لَهُ عَولَةٌ لَو يَفهَمُ العَودُ أَرزَما (١)

يبدو من البيت –وما هاج هذا الشوق إلا حمامة–أن الشاعر يحتبس بداخله شعورا دفينا لا يكاد يظهره، أو بمعنى أدق يخشى أن يصرح به، شوق يحترق داخله .ربما هو شوق للمرأة المثال التي كان يحلم بها، لأنه كما يلتقط من حياته وشعره أنه لم يكن على وفاق مع زوجته، ولم يهنأ معها بحال، ولولا تراكم الدين عليه لتزوج بغيرها!!!

قَد ظَلَمَت مِرآتَها أُمُّ مالِكٍ بِما لاقَتِ المِرآةُ كانَ مُحَرَّدا
أَرَتها بِخَدَّيها غُضوناً كَأَنَّها مَجَرُّ غُصونِ الطلحِ ما ذُقنَ فَدفَدا
رأَت مَحجِراً تَبغي الغطاريفُ غَيرَهُ وَفَرعاً أَبى إِلا انحِداراً فأَبعَدا
وأَسنانَ سَوءٍ شاخِصاتٍ كأَنَّها سَوامُ أُناسٍ سارحٌ قَد تَبَدّدا
فأَقسَمُ لَولا أَن حُدباً تَتابَعَت عَليَّ وَلَم أَبرَح بِدَينٍ مُطَرَّدا
لَزاحمتُ مِكسالاً كأَنَّ ثِيابَها تَجِنّ غَزالاً بِالخَميلَةِ أَغيَدا (٢)

فضلا عن كونه شاعر غزل، يستهويه التشبيب بالنساء منذ أن كان في

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤-٢٦.
(٢) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص ٧٩

الجاهلية، ووفرة التصابي في شعره تعكس شدة تعلقه بالنساء، وشغفه بالتقرب إليهن ومودتهن [١] وعندما لحق بالإسلام تناهى إلى سمعه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع حد الجلد للشعراء [٢] أو لمن ينحرف منهم عن مسار أدبيات أخلاق الإسلام كالهجاء الفاحش والغزل الماجن، والمجاهرة بالمعصية .

وحميد بلَغَه النهْيُ، لكنه لم يستطع أن يكف كليا عن التغزل بالنساء–كما هي ضوابط الإسلام– فعدل عن أسلوب التصريح إلى التلميح والمواربة والتّكْنِية حتى لا يقع عليه ما وقع على غيره من الشعراء من عقوبة رادعة من عمر رضي الله عنه، مثل: أبي محجن الثقفي الشاعر المخضرم الذي صرح في يوم ما بأمنيته المستقبلية التي أوصى بها شعرا، فرغب أن يدفن إلى جوار كرمة العنب حتى تروّى عظامه من عروقها في تصريح سافر عن تعلقه بها، فكان هذا التصريح –وإن لم يفعل – سببا لمعاقبته من قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إذا متّ فادفنّي إلى أصل كرمة تـروّي عظـامي بعـد مـوتي عروقهـا
ولا تـد فننّـي بـالفلاة؛ فـإنني أخـاف إذا مـا مـتّ ألا أذوقهـا [٣]

وكذلك الحطيئة–شاعر الهجاء–الذي نال بهجائه طرفا من المسلمين، فرفعوا شكواهم فيه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحبسه، وهدده بقطع لسانه إن عاد للهجاء، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ،وقصته مع الزبرقان بن بدر مشهورة في هذا الشأن. [٤]

(١) راجع: حميد بن ثور الهلالي، دراسة في شعر المخضرمين، د. أحمد عبد الواحد، ص ٣٢، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ط(١) ١٩٩٠ م

(٢) راجع: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار حياء التراث العربي بيروت–لبنان، ط(١) ١٩٩٤ م.

٣) شرح ديوان أبي محجن الثقفي لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥). تحقيق د يوسف عبد الرحمن. مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة ص ٣١.بدون.

٤) راجع: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تقديم د. حنا نصر الحتي، ص٩، دار الكتاب العربي بيروت، ط(١) ١٩٩٥ م.

غير أن حميد بن ثور اختلف عن الآخرين في أسلوبه، –وكأنه انصاع لضوابط الإسلام _فمع كونه شاعر لهو وغزل اكتفى بالتلميح ولم يجاهر، ولجأ إلى الكناية وأنزل السرحة منزلة المرأة قائلا:

وَهَـل أَنـا إِن عَللـتُ نَفسـي بِسَـرحَةٍ ... مِـنَ السَّرحِ مَسـدودٌ عَلـى طريـقُ
حمـى ظلَّهـا شـكسُ الخَليقَـةِ خـائفٌ ... عَليهـا غـرامَ الطـائِفين شَـفيقُ
فَـلا الظِـلّ مِنهـا بِالضُّـحى تَسـتَطيعَهُ ... وَلا الفـيءَ مِنهـا بِالعشـي تَـذوقُ
وَمـا وَجـدُ مشـتاقٍ أصـيبَ فـؤادُهُ ... أَخـي شَـهَواتٍ بِالعِنـاقِ نَسـيقُ
بـأَكثرَ مِـن وَجـدي عَلـى ظِـلِّ سَرحَةٍ ... مِنَ السَّرحِ إِذ أَضـحى عَلـيَّ رَفيـقُ
ولـولا وصـال مـن عميـرة لـم أكـن ... لأَصـرِمَها إِنـي إِذن لَطَليـقُ
أَبـى اللَّـهُ أَلا أَنَّ سـرحةَ مالِـكٍ ... عَلـى كُـلِّ أَفنـانِ العِضـاهِ تَـروقُ (١)

١). ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٤٠

المطلب الثالث: رمزية الحمام في الشعر العربي:

للحمام خصال تشبه الإنسان، كما أشار بذلك الجاحظ عند حديثه عنها نقلا عن مثنى بن زهير قائلا :لم أر شيئا قط في رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله في الذكر والأنثى من الحمام: رأيت حمامة لا تريد إلا أليفها، كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها...إلخ.. (١) كما أن لأنثى الحمام من الغنج والدلال والغزل مع قرينها ... فالحمام له خصلة يفوق بها جميع الحيوانات، فهو أرغب في التصنع والتغزل والتشكل والتفتل عن غيره (٢).

ولعل من باب هذا التشابه بين الحمام والإنسان في بعض الطباع كان التفاعل مستمرا بين الشعراء والحمام، وكان عنصرا حاضرا في أشعار الأولين. يأنسون به في حال الهجر والرحيل والغربة، كما يأنسون به في حال السمر والفرح، في الاثنين يرصدون له حال التسجيع والهديل أو النواح والعويل .وكأن الحمام معادل موضوعي لحال الشاعر سيما إذا كان في موقف يتشكى الوحدة والغربة والعزلة ،فتقفز إلى ذهنه صورة الحمام مع الأليف بوجوده إلى إلفه كما يوجد هو في موطنه بين أفراد أسرته يهدل ويفرح وينسجم، ويرى الكون بأسره في صورة متفائلة . فإذا انقلب الموقف إلى النقيض وصار هو في الغربة وصارت الحمامة بعيدة عن أليفها، آنئذ ينقلب الموقف تماما كحال الشاعر حين يُنفي أو يُبعد لأي سبب كان، فيجد في صوتها النواح والنحيب، فهو معادل موضوعي لحالة الشاعر الأسيانة في غربته أو في منفاه أو في وحدته وأساه . ومقطوعة أبي فراس الحمداني تترجم هذا بالضبط حين قال:

(١) راجع :الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ، شغل تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ج ٣، ص ١٦٥، دار الجيل بيروت.

(٢) راجع: الحيوان، ج٣، ص ١٥٨

أَقولُ وَقَد ناحَت بِقُربي حَمامَةٌ

أَيا جارَتا هَل تَشعُرينَ بِحالي

مَعاذَ الهَوى ماذُقتِ طارِقَةَ النَوى

وَلا خَطَرَت مِنكِ الهُمومُ بِبالِ

أَتَحمِلُ مَحزونَ الفُؤادِ قَوادِمٌ

عَلى غُصُنٍ نائي المَسافَةِ عالِي

أَيا جارَتا ما أَنصَفَ الدَهرُ بَينَنا

تَعالَيْ أُقاسِمكِ الهُمومَ تَعالَي

تَعالَيْ تَرَيْ روحاً لَدَيَّ ضَعيفَةً

تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذِّبُ بالِي

أَيَضحَكُ مَأسورٌ، وَتَبكي طَليقَةٌ

وَيَسكُتُ مَحزونٌ، وَيَندِبُ سالِي

لَقَد كُنتُ أَولى مِنكِ بِالدَمعِ مُقلَةً

وَلَكِنَّ دَمعي في الحَوادِثِ غالِي (١).

كما قيل إن المرأة المعشوقة المحبوبة – ذات النقاء –وصفت في الحكايات الشعبية بالحمامة (٢) وارتبط ذكره في أشعار القدماء بذكر الغزل وما يترتب عليه من شوق وحنين للمحبوبة ووجد ووله بها. وكأن ذلك الارتباط الذي بدأت ملامحه من العصر الجاهلي يعد إيذانا أو إرهاصة ببروز رمزية الحمام بوضوح في ملامح الغزل العذري عند الأمويين. مما يعني وجود علاقة حية وقائمة في أذهان الشعراء بين الحمام والمرأة منذ زمن وامتدت لعصور متأخرة (فالحبيب الغائبة عند العذريين

(١) بوابة الشعراء – أبو فراس الحمداني – أقول وقد ناحت بقربي حمامة تمت الزيارة في تاريخ ٢٠٢٤/٢/٢ م

(٢) راجع: فنون الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، ص١٠٦، مطبعة دار الهنا، ط١، ١٩٥٦.

يمكن أن تكون بديلا رمزيا مناسبا للهديل المفقود الذي ترجو أوبته، ولهذا فقد تولد نوع من الانسجام النفسي بين نوح الشاعر وبكائه على حبيبته وبين نوح الحمامة وشجوها على فرخها الضائع الذي لا يعود) [١]

ومن يستقرئ الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وعبر عصوره المتعاقبة يلتقط نماذج عدة تجسد هذا التعلق.

فهذا عنترة يمر على ديار المحبوبة بعد أن أصبحت أطلالا، وتستفز عبرته بكاء حمامة لامس شجوها شجوه .

أفمن بكاء حمامة في أيكةٍ عرفت دموعك فوق ظهر المحمل
كالدرّ أو فضض الجمان تقطعت منه عقائد سلكه، لم يوصل[٢]

هذا التفاعل والتجاوب بين عنترة والحمام لا يمثله هذا البيت فحسب، بل إن له أكثر من موقف تبادل فيها مع الحمام النوح والشوق والشجن سلوة وحنينا.

كيف السلوّ وما سمعت حمائما يندبن إلا كنت أول باكي
بعد المزار فعاد طيف خيالها عني قفار مهامه الأعناكِ[٣]

والخنساء يأسرها صوت الحمام ويذكرها أخاها صخر، وكأن نطقه يعد معادلا موضوعيا لبقاء صخر حيا في ذاكرتها، لذا تقسم بأنها لن تنساه ما دامت تجري في الكون أصوات الحمائم، في صورة يغلب عليها طابع الشجن والحزن.

(١) الحمامة بوصفها رمزا للمرأة الغزل الأموي، أ.د حسن جبار شمسي، أ.د منصور مذكور شلش، ص٢٩، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٨

(٢) بوابة الشعراء– عنترة بن شداد – طال الثواء على رسوم المنزل(poetsgate.com) تمت الزيارة في تاريخ ٢٠٢٤/٢/٢م

(٣) بوابة الشعراء – عنترة بن شداد – ريح الحجاز بحق من أنشاك تمت الزيارة في تاريخ٢٠٢٤/٢/٢م

تقول :

تالله أنسى ابن عمرو الخير ما نطقت حمامة أو جرى في البحر علجومُ [1]

غير أن طفيل الغنوي يرى في صوت الحمام صورة أخرى عكسية يخرج بها عن شرنقة الحزن إلى نشوة الطرب والاهتزاز لسجعه كحال المخمور حين يبلغ به السكر كل مبلغ. قائلا:

يغني الحمام فوقها كل شارق غناء السكارى في عريش مظلل [2]

وهكذا يستمر التفاعل بين الشعراء والحمام ويتطور متخذا صورا ودلالات ورموزا مختلفة ومتنوعة من شاعر لآخر-كما رأينا- ومن وقت لآخر، بل من عصر لعصر وفقا للحالة النفسية الإنسانية التي يشعر بها الشاعر ويخلعها عليه، أو يستنطقها استنطاقا تلمح فيه حالته! فهذا الشاعر الأندلسي أبو إسحاق الإلبيري يتفاعل مع شجو الحمام وبكاها تفاعلا مغايرا يخرج به إلى معنى أبعد يربط فيه بين بكاء الحمام وبكاء أسير المعصية، راجيا العفو والرحمة! يقول:

أحَمامَـــةَ البَيدا أَطَلَـــتِ بُكاكِ

فَبِحُسنِ صَوتُكِ ما الَّذي أَبكاكِ

إِن كانَ حَقاً ما ظَنَنتُ فَإِنَّ بي

فَوقَ الَّذي بِكِ مِن شَديدِ جَواكِ

إِنّي أَظُنُّكِ قَد دُهيتِ بِفُرقَةٍ

مِن مُؤنِسٍ لَكِ فَارتَمَضتِ لِذاكِ

(١) ديوان الخنساء، شرح ثعلب أبو العباس النحوي، حققه الدكتور أنور سويلم، ص ١٢٥، دار عمار، الأردن، ط(١) ١٤٠٩هـ-١٩٨٨ م.

(٢) ديوان أبي إسحاق الألبيري الأندلسي(ت٤٦٠). حققه وشرحه د/ محمد رضوان الداية. ص٣٨-٣٩ دار الفكر المعاصر .بيوت. دار الفكر. دمشق.ط: أولى١٤١١هـ-١٩٩١م.

لَكِنَّ ما أَشكوهُ مِن فَرطِ الجَوى

بِخِلافِ ما تَجِدينَ مِن شَكواكِ

أَنا إِنَّما أَبكي الذُنوبَ وَأَسرِها

وَمُنايَ في الشَكوى مَنالُ فَكاكي

وَإِذا بَكَيتُ سَأَلتُ رَبي رَحمَةً

وَتَجاوزاً فَبُكايَ غَيرُ بُكاكِ(١)

فالدلالة متعلقة بالإحساس المسيطر عليه لحظتها، فيما عرف عند النقاد بعد ذاك بالأنسنة، التي وقف البحث –سلفا– مع مفهومها– لغة واصطلاحا–، وكيف هي أنسنة الحمام في شعر حميد ابن ثور–الشاعر المخضرم–؟ والبواعث التي ألجأته إليها؟ والأدوات الفنية التي وظفها لتشكيلها؟

المبحث الأول :أنسنة الحمام في شعر حميد

يبدو أن هاجس الغزل، والتشبيه بالنساء ظل ملازما لحميد بعد إسلامه، ومبادئ الإسلام وضوابطه تنهى الشعراء عن أي تجاوزات في هذا الشأن، فأدخله هذا الأمر في صراع مع النفس بين الرغبة والواجب مما دفعه إلى أن يسلك سبيل الرمز والتلميح والمعادل الموضوعي –كما مر بنا سابقا–حين كنى عن المرأة بالسرحة، وترقّى في هذا الرمز عبر خطوات تصاعدية لإخفاء حالة الوله والتعلق بالنساء، خشية من الرقابة الدينية والاجتماعية، فاتخذ من الحمامة رمزا يتنفس بحديثه عنها وفي متابعته لأدق تفاصيل تحركاتها مع وليدها ما ينبئ عن حالة الحب والعشق الذي تملكه وسكن بداخله

وَما هاجَ هَذا الشَّوقَ إِلا حَمامَةٌ دَعَت ساقَ حرّ تَرحَةً وَتَرَنُّما (١)

وليس أدل على ذلك من قول قدامة بن جعفر (وقد يدخل في التشبيه

١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة، برياحه الهابة والبروق اللامعة، والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة، وآثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الداثرة) [1]

وبعد أن أثار هديل الحمام شوقه، وحرك كوامنه بدأ التلاحم والتجاوب يتضاعف بينه وبين الحمام، فيخلع عليه كافة المشاعر الإنسانية من حنوّ وحدَب، وخوف وحماية لصغيرها، ويظهرها في صورة أم مثالية ترعى وليدها، ويصور كافة خطوات تلك الرعاية والاهتمام.

مِنَ الوُرقِ حَمّاءُ العِلاطَين [2]باكَرَت غسيبَ أَشاءٍ [4]مَطلعَ الشَّمسِ أَسحَما
إِذا هزهزتــهُ الــريحُ أَو لَعِبَــت بِــهِ أَرَنَّــت عَليــهِ مــاثِلاً وَمُقَوَّمــاً
تُبــاري حَمــامَ الجَلهَتَــينِ [3]وَتَرعَــوي إِلــى ابــنِ ثَــلاثٍ بَــينَ عــودَينِ أَعجَمــا
تَطــوَّقَ طوقــاً لَــم يَكُــن عَــن تَميمَــةٍ وَلا ضــربَ صَــوّاغٍ بِكَفَّيــهِ دِرهَمــاً
بَنَــت بَيتَــهُ الخَرقــاءُ وَهــيَ رَفيقَــةٌ بِــهِ بَــينَ أَعــوادٍ بِعليــاءَ مُعلَمــا
تُرَشِّــحُ أَحــوى مُزلَغِبّــا تَــرى لَــهُ أَنابيبَ مِن مُستَعجِلِ الرِّيشِ حَمحَما
كــأَنَّ عَلــى أَشــداقِهِ نَــورَ حَنــوَةٍ إِذا هــوَ مــدَّ الجيــدَ مِنــهُ لِيَطعَمــا
فَلَمّا اكتَسى ريشاً سُخاماً وَلَم يَجِد لَــهُ مَعهــا فــي باحــةِ العُشِّ مَجثمــا
أُتــيحَ لَــهُ صَــقرٌ مُسِــفٌّ فَلَــم يَــدَع لَهــا وَلَــداً إِلا رَميمــاً وأَعظَمــا
فأَوفَت عَلى غُصنٍ ضُحَيّاً فَلَم تَدَع لِباكيَــةٍ فــي شَــجوِها متلوّمــا
مُطَوَّقَــةٌ خَطبــاءُ تَصــدَحُ كُلَّمــا دَنــا الصَّــيفُ وانجــالَ الرَّبيــعُ فأَنجَمــا
وَنــازَعنَ خيطــانَ الأَراكِ فَراجَعــت لِهادِفِهــا مِــنهُنَّ لَــدناً مُقَوَّمــا

---

١) نقد الشعر، قدامة ابن جعفر، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، ص١٣٤-١٣٥، ط(١)

٢) العلاطان :الرقمتان في أعناق الطير . ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

٣) الجلهتان :جانبا الوادي .ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

٤) الأشاء :صغار النخل .ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

فَماحَــت بِــهِ غُــرَّ الثَّنايــا كَأَنَّمــا جَلَـت بِنَضـيرِ الخـوطِ دُرّاً مُنَظَّمـا [١]

وما أن بدأ الوليد يشب عن الطوق وتظهر عليه بوادر القدرة وإمارات النضج، حتى باغتها عدو غاشم غدر بوليدها، وتركه رميما لا يلوي على شيء، وانقلب حال تلك الأم، وتبددت فرحتها بوليدها، وتهشمت كل الآمال المرتقبة.

ومن خلال متابعة حميد للحمام مع وليدها تستوقفه الأماكن،– وتبدو أنها أثيرة لديه –، أهاج ذكرها في نفسه ترقبه بشجن وألم للمشهد أمامه ،فيذكرها في تضاعيف أبياته (بيشة وتثليث وبينبما) .وتوشيح القصيدة بذكر الأماكن المطبوعة في مخيلة الشاعر ولبّه– لما يصاحب المرور عليها أثناء رحلاته أو ذكرها في دخيلته من وله وشوق وحنين– وتضمينها القصيدة يعد محور ارتكاز أصيل في القصيدة الغزلية القديمة التي تنحو منحًا عذريًا شفافًا، وكأن حميدا يحذو حذو هؤلاء الشعراء متابعًا لهم ومقلدا وناسجًا على منوالهم:

إِذا شِئتُ غَنَّتني بِأَجزاعِ بيشَةٍ أَو النَّخلِ من تَثليث أَو من يَبَنبَما[٢]

عَجِبتُ لَها أَنّى يَكونَ غِناؤُها فَصيحاً وَلَم تَفغَر بِمَنطِقِها فَما

فَلَم أَر مَحزوناً لَهُ مِثلُ صَوتِها وَلا عَربيّا شاقَهُ صَوتُ أَعجَما

كَمِثلي إِذا غَنَّت وَلَكِنَّ صَوتَها لَهُ عَولَةٌ لَو يَفهَمُ العَودُ أَرزَما[٣]

وتزداد حدة التلاحم والتفاعل بين الشاعر والحمامة في تعجب، كيف استطاعت أن تؤثر عليه بصوتها وتخترق مشاعره، وتهزها بهذه الصورة المثيرة؟ يبدو أن لغة خاصة–تطفو على السطح من الأعماق مثقلة بالأنين–جمعت بينهما

١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤–٢٦.

٢) يينبم :بفتح أوله وثانيه بعده نون وباء أخرى :واد شجير قبل تثليث . ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

لغة لا يفهمها إلا من قاسى تجربة مريرة مثل مرارة فقد الحمامة لوليدها وفجيعتها فيه، وفقد الشاعر لوليف يركن إليه يبثه الشكوى والحنين! وربما يقف شعور إصابته بفقد إحدى حبيبتيه (العور) خلف تحسسه وسرعة التفاتته للغتها!!

(فشعر حميد في هذا الباب وصف حي يمزج الحقائق الموضوعية بالصور الجمالية، ولا يقتصر على تمثيل الملامح الظاهرة، والحركات الحسية لهذا الحيوان، بل يعكس عليه من مشاعره، ويصور بعض حالاته النفسية من فزع واضطراب أو عزة وإباء) [١] فكأن هديلها الحزين يقوم بدور الموسيقى ا لتصويرية المؤازرة لجو الحزن المسيطر على المحب عند افتقاده من يحب [٢]

ويتأكد صدق التلاحم بين الشاعر والحمامة في مقطع شعري آخر يفيض حزنا ولوعة، وينم عن حس حميد المرهف تجاه صوت الطبيعة ممثلا في هديل الحمام على وجه الخصوص.

إذا نـادى قَرينَتَـهُ حَمـامٌ جَـرى ... لِصَـبابَتي دَمـعٌ سـفوحُ
يُرَجِّـعُ بِالـدُّعاءِ عَلـى غُصـونٍ ... هتـوفٌ بِالضُّـحى غَـرِدٌ فَصـيحُ
هَفـا لِهديلِـهِ – منـي إِذا مـا ... تغـرّد سـاجِعاً – قَلـبٌ قَـريحُ

فَقُلت: حَمامَةٌ تَدعو حَماماً ... وَكُلُّ الحبِّ نَزّاعٌ طَموحُ [٣]

فما إن ينادي الحمام قرينه إلا ويستجيب الشاعر لندائه بدموع مدرارة، وكأنه لامس وجعا بداخله، وتحرك له قلبه المجروح، فالحوار الداخلي يكشف عن حالة الأنين الصامت بين ما يعانيه ويكابده، وصوت الحمام، يعقبه حوار مكشوف يعلل

(١) حميد بن ثور الهلالي، دراسة في شعر المخضرمين، د. أحمد عبد الواحد، ص ٧١
(٢) راجع مقال: (الصورة الكلية عند الصحابي الشاعر حميد بن ثور الهلالي)د. ياسر عبد الحسيب رضوان، شبكة الألوكة، تمت الزيارة في٢٠٢٤/٧/٢٥ م
(٣) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٦٥

فيه سبب هذا التجاوب بين دموعه وصوته وهديله وقلبه المكلوم.

إن ثمة عاملا مشتركا بين ندائها وجوارحه، هو الحب الذي هز الحمامة ثم تسرب إليه ليحرك ما سكن بين أعطافه من مشاعر وتعلق ووجع، فالحالة واحدة والألم واحد بينهما، ف (كل الحب نزاع طموح). فالحب في نظره لا يخلو من النزاع والهجر بين المحبوبين.

كما أن هناك أمرًا آخر ملفتا يتمثل في سرعة الاستجابة من الشاعر وعمق التأثر، فما إن ينتهي إلى مسامع حميد نداء الحمام لوليفه إلا ويجيبه فورا بدموع شوقه السخية، وليس الدمع بحسب، بل حتى قلبه الجريح يهفو لندائه؛ فهو إذن مرهف الإحساس. فالجامع بينهما لغة الحب المشتركة وويلاته وعذاباته التي قل من ينجو منها– ومن تبعاته ووخزه وألمه –(إن ثمة قسطا مشتركا ابتدعه الشاعر بين هذه اللغة التي نتكلمها والعجمة التي تند عن هذا البكاء والترنيم، وهذا القسط المشترك تخلقه الأحزان المتماثلة والوله المتقابل. إنها مثل لغتنا على التباعد الظاهري بين اللغتين) (١)

وفي لوحة فنية أخرى يقول فيها حميد:

وَكائِن لهونا مِن رَبيعِ مَسَرَّةٍ وَصيفٍ لهوناه قَصيرٍ ظَهائِرُه

بِجِزعٍ تُغَنِّينا بِهِ مُستَظِلَّةٌ بِساقٍ تُغَنّيه وَساقٌ يُحاوِرُه

دَعَت ساق حُرٍّ وانتَحى مِثلَ صَوتِها يُمائِرها نَوحاً بِهِ وتُمائِرُه

ينقلنا حميد في الأبيات إلى مشهد غرامي يستذكر فيها يوما من أيام لهوه في أجواء الربيع تارة وفي قيظ الصيف تارة أخرى، مسترجعا في نشوة استذكاره

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرؤ القيس إلى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل، ص٢٠٨ مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ م .

الحوار المتناغم بين الحمام وذكرها أثناء استظلالها بحماه وحمايته، وكأنه يرى نفسه في حوارهما المتبادل، وما يلتقط من إيحاءات تحت ألفاظه– ساقٍ تُغَنّيه وَساقٌ يُحاوِرُه– انتَحى مِثْلَ صَوتِها – يُمائِرها نَوحاً بِهِ وتُمائرُه.–

ترمز إلى حنينه إلى وليف يبثه ما بداخله من فرح وحزن وألم ونشوة. فكأن المشهد بكافة تفاصيله يلمح فيه ألم الوحدة –وكأنها اجتمعت عليه غربة الروح وغربة المكان –وحاجته ماسة إلى من يشاطره مشاعره ويقاسمه إياها، فالحوار(ساق يحاوره) يكون عادة بين اثنين جمعت بينهما العاطفة المشبوبة. ولغة الحب المتحدة.

المبحث الثاني : وسائل تشكيل أنسنة الحمام الفنية عند حميد

استعان حميد بعدد من الأدوات الفنية التي نهضت بتشكيل ملامح الأنسنة في شعره ومنحت المتلقي بعدا جماليا اكتسبه من جراء افتنانه بأدواته، وتلاعبه بصوره تلاعبا فنيا أخاذا (فالشعراء أمراء الكلام، يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ.) [١]

وقد استطاع حميد أن يلفت أنظار المتلقين إلى حجم الشوق المكتنز داخل حناياه بعدة أدوات، ومنها أسلوب الحصر (ما هاج هذا الشوق إلا....) وكأن لحن الحمامة فجر طاقة الشوق الكامنة بداخله، فالحصر عزز التركيز على قيمتين في البيت، الأولى–الشوق– الذي هو بمثابة الاحتراق الداخلي الذي يعتمل في أنحاء حميد وتحت جوانحه، ووجد متنفسا له في بوح الحمامة–القيمة الثانية–حين دعت وليفها في ترنيمة شجية. فهديل الحمامة يعد معادلا موضوعيا لحال الشاعر، أسقط ما به من مشاعر وانفعالات داخلية على صوتها ليسهم بذلك الإسقاط في بلورة الحال، وتجسيد معاناة الوجد . ولعله في ذات الوقت يستقطب بدلالة الحصر

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ص ١٤٣، دار الغرب الإسلامي، ط(٢)، بيروت ١٩٨١ م

أذهان المتلقين، ويلفتهم إلى ما يريد البوح به بطريقة لمّاحة وفنية عالية.

ثم حلق بعدها مع الحمامة مصورا لها، فأخذ يصف لنا حالها في مشهد سردي قصصي تداخل فيه عنصر الزمان(باكر ت، مطلع الشمس) ترعى وليدا لم يتجاوز عمره الثلاثة ليال(دنا الصيف وانجال الربيع) مع عنصر المكان(الجلهتان–،جانب الوادي–أجزاء بيشة–تثليث –يبنبما– وكلها أسماء أماكن–وعش الفرخ الصغير الذي بنته من سعف النخل) مع عنصر الوصف الدقيق للحمامة التي تحلت بطوق رباني جميل، وأنيق، يغلب عليها طابع الرفق والحنو على هذا الوليد، فتطعمه، وتبالغ في رعايته، حتى بدت عليه أمارات النضج في حدث تصاعدي متنام، مقترن بعنصر التشويق، وما إن داخلها الأمن وشيء من الطمأنينة على هذا اليافع–وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة–حتى غدر به صقر– وكأنه حدث هابط–افترسه وتركه هيكلا منخورا.

وكأننا أصبحنا ها هنا بين عدة شخوص في الحدث (فاقد ومفقود، وشاهد على الحدث ومتلق مفجوع، وآخر منبهر من دقة التصوير) وبين تداخل أصوات عدة (نائحة ثكلى، وأخرى لائمة، وثالثة تشاركها مأتمها ونوحها) ومتلق يسمع غناءها.

فالنزعة الدرامية تتسلل إلى النص بشكل عفوي انسيابي كما يبدو، وكأن الشاعر الجاهلي وظفها بفطرته دون أدنى تكلف منه أو ثقل. فشعر حميد مال إليها – النزعة الدرامية–شأنه شأن الشعر العربي في مراحله الزمنية المتعاقبة (يبدأ غنائيا مطلقا، ثم غنائيا مقيدا بحدث، ثم يميل إلى الحكاية والحبكة والسرد والروح القصصي والملحمي ،ثم يقترب من الدراما عفويا، وتتولد فيه جذور تعد النواة الدرامية الأولى) [١]فضلا عن الحس الإنساني المرتفع الذي يبدو ضافيا عليه،

(١) الأصول الدرامية في الشعر العربي، د. جلال الخياط، ص ٥٧، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٢ م

حين شاركها الشاعر مأساتها، وشعر بآلامها ومعاناتها مما عزز من قيمة الأنسنة في الأبيات، وجعلته يعبر تعبيرا وجدانيا يلمح منه عدة أبعاد كان منها:

التعاطف مع الأم تجاه عاطفتها وحنوها على صغيرها، وعنايتها به وإطعامها له، والآخر جانب الاستبداد والقهر الذي يقع على الوديع الضعيف من القوي المتسلط المستبد حينما صور انقضاض الصقر الجارح على الفرخ الصغير انقضاضا مباغتا لم يترك للأم فرصة للمقاومة ودفع الضرر عن صغيرها أو حتى الانتقام له. وأخيرا الانكسار والحزن الذي خيم على المكان بنُواحها عليه، نواحا اخترق إحساس حميد، فتجاوب معه، وصوره في قالب إنساني صرف، وكأن به وجعا يضاهي ما نزل بالحمامة.

فَلَم أَر مَحزوناً لَهُ مِثلُ صَوتِها، وَلا عَربيّا شاقَهُ صَوتُ أَعجَما
كَمِثلي إِذا غَنَّت، وَلَكِنَّ صَوتَها لَهُ عَولَةٌ لَو يَفهَمُ العَودُ أَرزَما(١)

ومن خلال الأبعاد المشار إليها يمكن أن نلتقط إيحاء رمزيا يكمن خلفها، ويثير تساؤلات عدة.

فهل كان حميد يعاني من التسلط واستبداد القوى الكبرى، سواء كانت ممثلة في الأعراف القبلية الصارمة، أم في ظلم بعينه وقع عليه؟ أو عانى من شخصيات متمردة أو متنمرة به تسلطت عليه؟ أو كان يعاني من فقد لحبيب أو وليف يأوي إليه وظل يحتمي به؟ أو أنه كان يعاني من كليهما، وأسقط ما بداخله من ألم ووجع على صورة الحمامة مع فرخها؟ .

فالنص إذا يحمل بعدا رمزيا تخلّق من الأسلوب القصصي الدرامي، وفوق ذلك ونظرا لما يعانيه حميد وما يحمله بين جوانحه فهم لغة الحمامة، ولمس حرارة

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٢٤

الوجد، وشعر بمرارة الفقد، وحن لنحيبها وتفاعل معه. مما يعني أن النص يتمتع بلغة شعرية مرهفة.

فالشاعر (إذن يهب الحمامة هذا الوجود الإنساني، ويرى في هذا الوجود صورة لوجوده هو. يسمع غناءها، فيفقه هذا الغناء، ويلذ منها فصاحتها) [١] وتلك لغة شعرية شفافة استحسنها النقاد منه، حين عبر عن غناء الحمامة بالفم لا بالمنقار حين قال :

عَجِبتُ لَها أَنّى يَكونُ غِناؤُها فَصيحاً، وَلَم تَفغَر بِمَنطِقِها فَما[٢]

(والفصاحة في الغناء–وهي الإبانة–والنطق يناسبهما الفم لا المنقار، وقد أدرك الشاعر ذلك بحسه اللغوي) [٣] فلغة حميد مبينة وضّاحة جذّابة ،اتسمت بالتأثير، وحققت المتعة التي تفتقدها بالطبع لغة الخطاب المباشر الذي يرمي إلى إيصال المعلومة فحسب.

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص٢٠٨

(٢) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص ٢٧.

(٣) حميد بن ثور الهلالي، دراسة في شعر المخضرمين، ص١٦٤

الخاتمة

وبعد، فقد تناولت الدراسة (أنسنة الحمام في شعر حميد بن ثور الهلالي)، وخلصت إلى جملة من النتائج :

١- شغلت الأنسنة مساحة بارزة في ديوان حميد؛ فمن يتناوله لا تخطئ عينه هذه المشاعر والأحاسيس المكونة في سطور ،تتناول الحمامة وأليفها.

٢- إن أنسنة الحمام التي وردت في شعر حميد بن ثور أوعزت إلى مشاعر غائرة في عوالمه الداخلية.

٣- إن الأنسنة تبلورت في شعر حميد من جراء بواعث مختلفة بعضها سلطوي، وبعضها اجتماعي، وبعضها نفسي.

٤- تشكلت الأنسنة بأدوات فنية مختلفة، كانت النزعة الدرامية أكثرها بروزا.

٥- حميد بن ثور وإن كان محاكيًا لكثير من الشعراء؛ فله لغته الخاصة، وأدواته الفنية التي نسج منها لوحاته الفنية لهذه المفردة الطبيعية انحنت على كثير من القيم الدلالية والجمالية .

٦- بعض نماذجه نستطيع أن نضعها داخل إطار المعادل الموضوعي الذي لمسه حميد بحسه الفطري قبل أن يصير مصطلحا مستحدثا جاء مع –تي إس إليوت –في العصر الحديث.

٧- جاءت لغة حميد هامسة رقيقة تحكي أنثى الحمام ورقته وجماله وتناسق أشكاله.

٨- حفزت اللغة الشعرية التي استعان بها حميد ذهن المتلقي لما يعتمل داخله من شوق ولهفة.

المصادر والمراجع

١) ابن السكيت، ديوان الحطيئة، تقديم د. حنا نصر الحتي، ص٩، دار الكتاب العربي بيروت ، ط(١) ١٩٩٥ م.

٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (أنس)ج (١)، ص٢٣١- ٢٣٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط (١) ١٩٩٥ م.

٣) أبو إسحاق الألبيري. ديوان أبي إسحاق الألبيري الأندلسي(ت٤٦٠). حققه وشرحه د/ محمد رضوان الداية. دار الفكر المعاصر .بيروت. دار الفكر. دمشق. ط: أولى١٤١١هـ-١٩٩١م.

٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار حياء التراث العربي بيروت–لبنان، ط(١) ١٩٩٤ م.

٥) أحمد رشدي صالح، فنون الأدب الشعبي، ص١٠٦، مطبعة دار الهنا ،ط١، ١٩٥٦.

٦) د. أحمد عبد الواحد، حميد بن ثور الهلالي، دراسة في شعر المخضرمين، ص ٣٢،مطبوعات نادي مكة الثقافي ،ط(١) ١٩٩٠ م.

٧) أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، ط(١) ٢٠٠٥ م.

٨) الدكتور أنور سويلم، ديوان الخنساء، شرح ثعلب أبو العباس النحوي، ص ١٢٥، دار عمار، الأردن، ط(١) ١٤٠٩هـ--١٩٨٨ م.

٩) أوراس نصيف جاسم، صور الشعراء الفنية قبل الإسلام من منظور المنهج النفسي، أوراس نصيف جاسم، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٤ م.

١٠) د. جلال الخياط، الأصول الدرامية في الشعر العربي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٢ م.

١١) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن

الخوجة، ص ١٤٣، دار الغرب الإسلامي، ط(٢)، بيروت ١٩٨١ م.
١٢) حسان فلاح أوغلي، ديوان طفيل الغنوي، شرح الأصمعي، دار صادر بيروت، ط (١) ١٩٩٧ م.
١٣) أ،د حسن جبار شمسي، الحمامة بوصفها رمزا للمرأة الغزل الأموي، أ.د منصور مذكور شلش، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٨.
١٤) د. سؤدد يوسف الحميري، أنسنة الطبيعة في الشعر الجاهلي، دراسة موضوعية فنية، دار دجلة، عمان- الأردن، ط(١) ٢٠١٩ م.
١٥) د. سيد نوفل ،شعر الطبيعة في الأدب العربي، ،ص ٢٠، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٥ م.
١٦) د. شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرؤ القيس إلى ابن أبي ربيعة، مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ م .
١٧) الأستاذ عبد العزيز الميمني، مقدمة ديوان حميد بن ثور الهلالي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. بدون تاريخ .
١٨) د. عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية بيروت الفاصلة ١٩٨٧ م.
١٩) د. علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، ص ١٢٣، دار الأندلس، ط ٢، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.
٢٠) عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،، شغل تحقيق وشرح عبد السلام هارون،ج ٣ ،ص ١٦٥، دار الجيل بيروت.
٢١) قدامة ابن جعفر، نقد الشعر،، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي،ط(١)
٢٢) لجنة مجمع اللغة العربية ،المعجم الوسيط ،ط(٢) دار الفكر.
٢٣) د.مرشد أحمد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن المنيف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٢م

٢٤) دكتور مصطفى الجوزو ،التأنيس غير التشخيص،، مجلة العربي الكويتية، العدد ٦٣٠، ٥/مايو ٢٠١١ م.
٢٥) أ.د منصور مذكور شلش، الحمامة بوصفها رمزا للمرأة في الغزل الأموي، أ،د حسن جبار شمسي، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٨
٢٦) ندى حمزة خياط،، لمزيد من التفصيل راجع بحث: مصطلح(الآنسنة) وتجلياته في الفكر المعاصر (دراسة تحليلية نقدية)، ص١٠٨، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية م ٢٨ع ٦ ص: ١٠٥-١٣١(٢٠٢٠ م)
٢٧) د. ياسر عبد الحسيب رضوان ،(الصورة الكلية عند الصحابي الشاعر حميد بن ثور الهلالي، شبكة الألوكة ،تمت الزيارة في٢٠٢٤/٧/٢٥ م

المواقع الإلكترونية

- موقع بوابة الشعراء:
  - بوابة الشعراء – أبو فراس الحمداني – أقول وقد ناحت بقربي حمامة تمت الزيارة في تاريخ ٢٠٢٤/٢/٢ م
  - بوابة الشعراء – عنترة بن شداد – طال الثواء على رسوم المنزل (poetsgate.com) تمت الزيارة في تاريخ٢٠٢٤/٢/٢ م
  - بوابة الشعراء – عنترة بن شداد – ريح الحجاز بحق من أنشاك تمت الزيارة في تاريخ ٢٠٢٤/٢/٢م
- موقع المكتبة الشاملة:
  - ص٣٣٨ – كتاب المجموع اللفيف – عوران قيس – المكتبة الشاملة (shamela.ws) تمت الزيارة في ١٨ أكتوبر ٢٠٢٤ م
  - ص٣ – كتاب الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار – بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين – المكتبة الشاملة (shamela.ws) تمت الزيارة في ١٧ أكتوبر ٢٠٢٤ م .